في تبديد الأوهام

قاسم القادري

ما أكتبه ليس سيرة ذاتية تحكي قصة حياتي، فأنا لا أحب أن أكتب عن نفسي فضلاً عن أنني لا أعتبرها شخصية متميزة يهم الناس الاطلاع عليها والتعرف على تفاصيلها. ما أكتبه، بعضٌ من مشاهداتي وجملة من ملاحظاتي التي كونتها خلال إقامتي في فرنسا، حيث ذهبت إليها طلباً للعلم فتعلمت في جامعاتها ثم علمت في مدارسها، الأمر الذي أتاح لي رؤية المجتمع الفرنسي من داخله والكشف عن عدد من جوانبه الخاصة والمميزة.

إذا كنت شاهدت فرنسا لأول مرة في أوائل ١٩٨٢، فإن فرنسا التاريخ والآداب والعلوم والثقافة، كانت قد وجدت مكانها في ذاكرتي منذ زمن طويل، وكانت حاضرة في تكويني الفكري والثقافي والسياسي. لقد أتيت فرنسا وأنا أحمل في رأسي شارلمان ونابليون ولويس الرابع عشر وغورو وديغول... إلى جانب راسين وكورناي وموليير وفولتير ومونتسكيو وروسو... كنت أجمع فرنسا الاستعمار، فرنسا المسؤولة عن مقتل مليون ونصف مليون جزائري وفرنسا الإخاء والعدالة والمساواة، فرنسا كومونة باريس و١٨ برومير وفرنسا الرأسمالية والاستغلال، فرنسا العلم والآداب والثقافة وفرنسا العنصرية والشذوذ والانحلال، كنت متأرجحاً بين الإعجاب والخصومة، تائهاً بين الوهم والحقيقة ومتردداً بين الرفض والقبول، ولقد زاد في ترددي أنني

سافرت إلى هذا البلد في فترة كنت فيها قد بدأت مراجعة ما كنت قد اعتقدته من المسلمات وأخذت أشك فيما كنت قد اعتبرته من البديهيات والثوابت.

من الأجواء العليا، ومن نافذة الطائرة بدت لي فرنسا لوحة فنية رائعة، صوراً هندسية شتى، مثلثة، مربعة، مستطيلة أو دائرية، طرقات مرسومة بكل دقة ومهارة، قرى وبلدات منتشرة بشكل منظم ومتناسق تزيدها سقوف القرميد جمالاً وبهاء... لوحة خضراء ذات طبيعة ساحرة، أضفت عليها يد الإنسان كل فنها وإبداعها... قلت في نفسي ولكن الناظر من بعيد يرى الأمور بالإجمال، لا يكاد يرى إلا المعالم الكبرى والخطوط العريضة، يرى الكليات ولا يرى الجزئيات، تنكشف له السطوح والأشكال الخارجية وتحتجب عنه الدواخل والمضامين... سوف أنتظر الرؤية القريبة لعلها تزيل الوهم وتبعد الشكوك وتصحح الأخطاء... ولكن المشاهدة الواقعية والمعاينة الحسية أتت لتؤكد الانطباعات الأولية. فأينما توجهت في فرنسا، يأسرك جمال الطبيعة وسحرها، غابات كثيفة وشاسعة، أشجارها باسقة ومتنوعة، جنائن وحدائق موزعة في كل المناطق والأحياء، تهيىء للعجّز مقاعد يرتاحون فوقها، وتؤمن للأطفال ألعاباً متنوعة يلهون بها وتقدم للرياضيين كل الوسائل التي تمكنهم من ممارسة هواياتهم، كما توفر للشباب أمكنة يستمتعون فيها بالقراءة ومناظر تثير فيهم مكامن الخلق والإبداع، وتمنح المراهقين أيضاً فرصاً لممارسة الحب والعشق والهيام.

غابات وحدائق غناء تملأ العيون بجمال نباتاتها وخضرة أشجارها وألوان أزهارها، تشغف الآذان بزقزقة طيورها وحفيف أغصانها وخرير مياهها وتنعش الصدور بنقاء هوائها ورقة نسائمها. منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من النهار، جماعات وافدة وأخرى مغادرة، بشر من كل الألوان، الأسود والأبيض والأسمر والأصفر ومن كل القارات الآسيوي والأفريقي والأمريكي والأوروبي ومن كل الديانات المسلم الذي يصلي فوق العشب واليهودي المعتمر برنيطة أو قلوسية والمسيحي الذي يضع شارة الصليب والبوذي المتلفع بثوبه، تتعدد ألسنتهم وتختلط لهجاتهم هذا يتكلم الصينية وذلك يتكلم العربية وآخر بالفرنسية أو الإنكليزية، ومع تعدد أجناسهم واختلاف عاداتهم وتقاليدهم فإنهم يتكيفون مع قوانين البلاد وأعرافها، فالآسيوي أو الأفريقي يتصرف في فرنسا بما لا يتصرفه في بلاده، ربما لأن لديه القناعة المسبقة بأن أبناء تلك البلاد متحضرون لا يرمون أوساخهم إلا في سلات المهملات ولا يتقدم أحدهم ليأخذ دور أخيه في صف الانتظار ولا يجتاز

إشارة المرور وهي حمراء... إنه في الغالب يتقمص شخصية أخرى ويغالي في التماهي والتماثل مع الإنسان الفرنسي فتراه يخفض من صوته ويترقق في لفظه ويتأنق في مظهره ويمارس ما لا يمارسه في بيته ولا يطبقه في حيه أو في علاقاته مع إخوانه.

* * *

المجتمع الفرنسي مجتمع عامل ومنتج والفرد الفرنسي عامل ومنظم، منذ الصباح الباكر تجد الفرنسيين طوابير متحركة، وقع أقدامهم وهم متجهون إلى محطات القطارات والباصات يذكر بحركات الجيوش الاستعراضية. جموع مزدحمة ومتلاصقة تنتظر القطارات والباصات تتراكض حاسبة وقتها بكل دقة وانتباه، تنام وتستقيظ في ساعات محددة وتترك منازلها في أوقات ثابتة وتقدر وصولها إلى مراكز عملها في أوقات معينة دون إهمال أو تأخير... بعد الساعة الثامنة صباحاً تخال الأبنية فارغة من أصحابها، فلا تلمح بشراً يجلسون على شرفاتها ولا ترى أشخاصاً يطلون من نوافذها ولا تشاهد أولاداً يلعبون أمامها إلا ما ندر... المجتمع كله يتحول إلى ورشة عمل ضخمة، كل فرد يأخذ موقعه ضمنها، تقاليد العمل ترسخت في النفوس حتى أصبحت من مكونات الشخصية، حتى المتقاعد يستمر في تنظيم حياته وإخضاعها لتقاليد العمل، ينهض ويعمل ويأكل في أوقات معينة وساعات محددة... المجتمع الفرنسي يعطي للعمل أهميته ووزنه، فالإنتاج ثمرة الجهد والعمل، والتقدم والنمو لا يتحققان إلا بالعمل، والاستقلال لا يتوطد ويتعزز إلا بالعمل... من لا يعمل لا يستحق الاحترام، ينظر إليه نظرة القاصر والتابع. لا يقبل الفرنسي بسهولة فكرة كون الفرد قادراً على العمل ولا يسعى إليه سعياً جاداً وحثيثاً، ولا يستسيغ شخصاً يرفض انتهاز فرص العمل المتاحة له مفضلاً عليها العيش على تلقي المساعدات وانتظار الهبات... الفرنسيون يلخصون حياتهم بثلاث كلمات BOULO - METRO (DODO - قطار عمل نوم). من الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساءً ومنهم من لا يصل إلى منزله قبل الثامنة مساءً، لا يترك العمل للكثيرين منهم مجالاً للاهتمام بنفسه وأهله وغيره ويكاد يحرمهم متعة الراحة وفسحة التأمل... والفرنسي لا يقيم وزناً للمظاهر الكاذبة والتصرفات الخادعة، فهو لا يرهق نفسه بأعباء مادية باهظة إرضاءً لنزعة طاغية وخضوعاً لمفاهيم سائدة وتصرفات شائعة لا قناعة فيها ولا فائدة منها، حتى المرأة لا تجد حرجاً أن تحمل الفرشاة وتصعد السلم لتدهن سقف بيتها أو لتلصق ورقاً على جدران منزلها، كما أنها لا تجد مشكلة أن تسكن مع

زوجها في غرفة واحدة أو في غرفتين أو ثلاث إذا كان لديهما أولاد...

خلال إقامتي في فرنسا، تبددت بعض الأوهام التي كنت أحملها والتي كان مصدرها الأدبيات السياسية اليسارية التي طغى عليها طابع الثورة والتحريض والتي كانت تعبر عن فترات تاريخية مضى زمنها والتي تجاهلت دور الدولة في المجتمعات الرأسمالية وتدخلها بغية إرساء توازنات اجتماعية ساهمت في تحسين الظروف الاجتماعية للطبقات الفقيرة والمتوسطة... فالبطالة ليست كما كنت أوهم تقذف بالعاطلين عن العمل في الشوارع بلا أي مورد من موارد الرزق... العاطلون عن العمل في فرنسا يتقاضون في السنة الأولى أجوراً بنسبة ٧٥٪ من أجورهم التي كانوا يتقاضونها ثم تبدأ بالإنخفاض بشكل تدريجي، والبطالة تعني زيادة في التقديمات الاجتماعية، زيادة في المساعدات العائلية، زيادة في الإعفاءات من مبالغ مستحقة في المطاعم والمستشفيات والمدارس ووسائل النقل ومصلحة الضرائب... وغالباً ما يستفيد منها ويسعى للوصول إليها العرب والأفارقة ذوو العائلات الكبرى... أحد جيراني جزائري عنده ثمانية أولاد، عمل في إحدى الشركات مدة من الزمن ثم جرى تسريحه من عمله... كان يوم تسريحه كأيام العيد، فالتقديمات التي حصل عليها والإعفاءات التي استفاد منها جعلته في وضع أفضل من ذي قبل وهذا الأمر يزعج اليمين المتطرف الذي يرى في ذلك مادة تحريض عنصري ضد الأغراب الذين يستفيدون من قوانين وضعت لتشجيع الفرنسيين على الإنجاب وزيادة النسل ولا يستفيد منها عملياً سوى الأجانب...

* * *

لا أريد الدخول في دوامة البحث عن دور كل من الفرد والدولة وأيهما له الفضل في رقي الآخر، فالعملية متشابكة ومعقدة وليس هذا مجال الإجابة عن تلك الإشكالية، ولكني أود الإشارة إلى أن دور الدولة والمؤسسات الرسمية والأهلية هام وفعال. سلطة القانون فوق كل السلطات، الأشخاص والأحزاب يتداولون قيادة أجهزة الدولة وإدارة المؤسسات الأهلية والمدنية التي تستمر في حركتها وعملها بمعزل عن السلطة السياسية واتجاهات الأفراد وانتماءاتهم وأهوائهم... الأكثرية الساحقة من الفرنسيين تتعلم في مدارس الدولة وجامعاتها المنتشرة في كل الأنحاء. لكل حي روضته ومدرسته وثانويته، ولكل مدينة جامعاتها، يسجل التلامذة في المدرسة الأقرب لأماكن إقامتهم، وتقدم لهم الكتب مجاناً حتى نهاية المرحلة المتوسطة،

ويوضعون في الصفوف المناسبة لأعمارهم. التعليم مجاني في جميع مراحله والمنح الدراسية تعطى لأبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة. لكل مدرسة مكتبتها وقاعتها الرياضية، ولكل مدرسة مطعمها الذي يقدم وجبات الأكل للتلامذة بأسعار تتناسب مع مداخيل الأهل وتتفاوت تبعاً لظروفهم المعيشية وأوضاعهم الاجتماعية... ولكل حي مسبحه ومركزه الرياضي ومنتدياته المتنوعة التي تشرف عليها البلدية والتي تؤطر حركة الشبيبة وتلبي حاجاتها وتنمي قدراتها وطاقاتها... والرعاية الصحية والاجتماعية تشمل كافة المواطنين، ومستشفيات الدولة ودور المعاقين والعجزة منتشرة في كل المدن والمناطق، ومن لا يتمكن من دفع رسوم التأمين الصحي والاجتماعي تتولى البلدية أو غيرها من مؤسسات الرعاية الاجتماعية مساعدته وتحمل نفقات تمريضه... وتملك الدولة وسائل النقل والمواصلات العامة وشبكة الكهرباء والغاز ومصلحة البرق والبريد والهاتف وتشرف عليها وتقدم الخدمات للمواطنين بأسعار معتدلة... تكاد الدولة أن تكون كل شيء في حياة المواطن. العلاقات الأفقية بين الناس واهية وضعيفة ولا تكاد تلمس معالمها، علاقة الأفراد فيما بينهم لا تتم بشكل مباشر داخل دور السكن أو عبر الأحياء، علاقاتهم فيما بينهم علاقات عمل، تجري عبر المؤسسات، وتعيش داخل المؤسسات والهيئات وتنقطع لحظة الخروج منها وبعيد مغادرتها. إذا اعتدي على إنسان فلا دخل للأفراد الآخرين، ولا مكان للنخوة والشهامة، ولامحل للقيم التي تدعو إلى ردع الظالم ونصرة المظلوم... وإذا شب حريق في منزل أو تعرض للسطو فلا علاقة للجيران بهذا الأمر، وإذا دهست سيارة شخصاً، فقانون السير يحذر من نجدته وإسعافه أو لمسه، ما يستطيع المواطن فعله هو الاتصال بالدولة وإخبار البوليس والتفرج والانتظار!! حتى وصل الحد في بعض الحالات إلى اغتصاب فتاة في وضح النهار وفي داخل عربة قطار تقل حوالي أربعين راكباً دون أن يتجرأ أحد على نجدتها والدفاع عنها... طبعاً يوجد هناك العديد من المستنكرين لهذا التراجع في القيم ولتلك البرودة في علاقات الناس ببعضهم البعض. ويوجد الكثير من المتذمرين من تقاعس الدولة وتقصير أجهزتها في حل العديد من القضايا. ولكن واقع الحال أن دائرة السلبية وعدم الاكتراث تتسع وتستشري وشيئاً فشيئاً يسود المنطق الذي يعتبر أن التعاون والتضامن بين الناس هو عمل مؤسسات متخصصة ومنظمة كشركات التأمين ومؤسسات الرعاية والدفاع المدني والبوليس والصليب الأحمر، إلخ... ويرى أن المبادرات الفردية تعرقل عمل الأجهزة والمؤسسات، وتورط أصحابها في أمور لا

تعنيهم وتضعهم في قفص الاتهام حتى تثبت براءتهم...

* * *

خرج المعلمون يتراكضون على صراخ (مدام برينو) مدرسة البيولوجيا في إحدى ثانويات مدينة Vitry، كانت تلك السيدة في حالة عصبية متوترة، يحيط بها الطلاب من كل جانب ودموعها تنهمر فوق خديها وهي تولول بأعلى صوتها: لا تنادوني باسم ذلك الوغد... أنا (فرانسواز)، (فرانسواز) فقط... أدخلناها إلى غرفة الأساتذة وبدأنا نهدىء من عصبيتها فيما كانت تنهال سباً وشتماً على السيد (برينو) سبب محنتها وشقائها... لقد تزوجت منذ عشر سنوات والمرأة في فرنسا تحمل اسم زوجها، والطلاب وأهالي الحي لا يعرفونها إلا (مدام برينو)، ولكنها منذ أن طلقت زوجها تعاني من مشكلة اسمه الذي لصق بها والذي يذكرها كما تقول بكل العذابات والآلام التي واجهتها معه. لقد تخلت عن ولديها كما تقول لتقطع كل صلاتها به وهي تحاول عبثاً نزع اسمه عنها ولكن أنى لها ذلك وكل الذين يعرفونها لا يوجد في ذاكرتهم إلا هذا الاسم. كيف تستطيع بفترة زمنية قصيرة أن تمحو اسماً ترسخ في معارفهم منذ عشرة أعوام؟... قالت لها زميلتها (سالين) وهي تمسح دمعتها لا بأس عليك أيتها الصديقة لقد مررت أنا بظروف أسوأ من تلك، لقد اضطررت إلى ترك الحي الذي كنت أقطنه لأن الناس صاروا ينادونني بثلاثة أسماء مختلفة، منهم من يعرفني باسم زوجي الأول ومنهم من تعرف علي باسم زوجي الثاني والآن عدت إلى اسم عائلتي... مشاكل المرأة رغم الحقوق التي حصلت عليها ما زالت كثيرة، فالكثير من الكتاب والكثيرات من النساء ما زالوا يشكون من كون المجتمع مجتمعاً ذكورياً ومن كون التربية مساهمة في تكريس ذلك الواقع... هناك أسماء للإناث وأسماء للذكور، أزياء للنساء وأزياء للرجال، ألعاب للبنات وأخرى للصبيان، إلخ... وكثيراً ما كانت المعلمات تتندرن في أوقات الفراغ، على أزواجهن عندما يحاولون غسل الثياب، كيف يخلطون الأبيض مع الأسود والأحمر مفسدين بذلك العديد من قطع الثياب الثمينة... تشكو المرأة من كونها امرأة في مجتمع يخضع لسيطرة الرجل، فهي تعمل لتتحرر ولتتساوى بالرجل فإذا بها تجد نفسها تعمل خارج المنزل وداخله، وخاضعة للعبة الأدوار والمهمات وقوانين الطبيعة والبيولوجيا!!

مشكلة المشاكل في فرنسا هي مشكلة العائلة، هذا ما يراه عدد لا بأس به من علماء الاجتماع وعلماء النفس، تفكك العائلة يندرج على رأس المشاكل التي تجابهها

المجتمعات الحديثة بالإضافة إلى مشاكل المخدرات وتفشي الأمراض وتلوث البيئة وأخطار الأسلحة النووية... ففي الوقت الذي يتراجع فيه الإقبال على الزواج التقليدي الهادف إلى تكوين أسرة، لصالح المساكنة والمصاحبة أو لصالح الزواج الشاذ الذي شرع له مؤخراً (رجل مع رجل وامرأة مع امرأة)، فإن نسبة الطلاق بين المتزوجين نسبة عالية ومرتفعة وتترك آثارها السلبية على أكثر من صعيد... في اجتماعات الأهل التي تنظمها المدارس لدراسة أحوال الطلاب ودرس مشاكلهم، كنا نتعرف على جملة من تلك المشاكل التي تترك بصماتها الواضحة على نشاط الطلاب وسلوكياتهم... مشاكل الطلاب في أغلبيتها الساحقة كانت مشاكل أبناء المطلقين الذين تتغير ظروف حياتهم وتصبح أكثر تعقيداً... قالت لي إحدى السيدات كان أولادي يعانون من خلافي مع أبيهم والآن أعاني من رفضهم وعدم تقبلهم لزوجي الجديد.... وقالت لي أخرى أرجوك يا سيدي أن تتفهم وضعي فأنا امرأة مطلقة وأجابه الحياة وصعوباتها وحيدة ومنفردة. أولادي يفتقدون إلى سلطة الأب، إلى قبضة الرجل. أقول بصراحة أنا عاجزة عن ضبطهم!!. مشاكل عديدة قد توجد مثيلاتها في كل البلاد ولكنها تتفاقم وتتفشى بشكل بارز في المجتمعات الغربية حيث الظروف الاجتماعية تصبح أكثر تعقيداً وحيث تنمو الحياة الفردية وتتعزز عن طريق الإستقلال المادي، وحيث يطلق العنان للحرية الشخصية دون مراعات للضوابط الاجتماعية والإنسانية...

في حياة الفرد مكانة القيم والأخلاق أصبحت ضعيفة ومهزوزة وتكاد تكون ذكريات لدى العجائز، محور الحياة هو الأنا، المكاسب والملذات التي تتكرس عن طريق التشريعات والقوانين... لا مجال للتضحيات الضائعة والنخوات العنترية والمروءة الفارغة!... إذا كان الأكل معداً لثلاثة أشخاص فمعذرة من الرابع إذا لم يجد ما يقدم إليه، الفرنسي ليس مجبراً باسم الشهامة والعاطفة أن يبقى مسؤولاً عن شقيقته التي لم تجد شخصاً يقاسمها تكاليف الحياة، وليس ملزماً برعاية والديه لأن الله قد أوصاه أن يبر بهما... بقاؤهما تحت رعايته يفسد عليه متعته ويقضي على حريته وحركته... إذا كانت المصلحة المادية والمنفعة الشخصية حافزين هامين لدى جميع الناس فإنهما يطغيان لدى العديد من الناس في المجتمع الفرنسي... فهناك من يتزوج بدافع مادي محض، إذ يكون الزواج لدى الطرفين عامل تخفيض للضرائب والرسوم والأعباء وعامل استفادة من المكاسب والتسهيلات التي تمنح للمتزوجين، وإنجاب الأولاد عند الكثيرين مسألة اقتصادية في أبرز وجوهها، لأنها تعني زيادة في المكاسب والأرباح وانخفاضاً في التكاليف والأعباء... القيم الاجتماعية التي تدفع

الإنسان للمحافظة على وضعه العائلي وتقديمه على حساب وضعه الشخصي في بلد ما لا مجال لها في فرنسا... الوفاء ضعيف بشكل عام فالمرأة التي ترى مصلحتها أو رغبتها تشدها إلى إنسان آخر يفوق زوجها من حيث المواصفات الشخصية والمادية لا تتورع عن تركه غير آبهة برأي الأهل والجماعة، أو بمصير البيت والأولاد. والزوج الذي تتاح له فرصة الزواج من فتاة أصغر سناً من زوجته أو أكثر مالاً منها لا يضع رأي الناس في اعتباره، وحدها قناعاته واعتباراته هي التي تحدد سلوكه وحركته... دائرة العيب، دائرة ضيقة جداً، الأطفال لا يعرفونها، الحب، الجنس أمور طبيعية ومباحة. اللاطبيعي هو الخجل من ذلك حتى تصل المبالغة في الأمر إلى تخطي الأعمار وإلى القيام بحملة توزيع مجانية للموانع المطاطية على طلاب المدارس المتوسطة بحجة حمايتهم ووقايتهم من مرض (السيدا)... الأمرالذي دفع عدداً من الطلاب الذين لم يكن موضوع إقامة العلاقات الجنسية مطروحاً لديهم إلى التفكير جدياً في الأمر، فالتشجيع أتى من السلطات العليا... وزع الواقي المطاطي، إذاً لا بد من استعماله، هذا ما دفع مجموعة من الطلاب القليلي الخبرة في (شامبيني) إلى اختطاف فتاة بريئة لم يتجاوز عمرها عشر سنوات، حيث تم اغتصابها وتجريب البالونات الواقية بها!!

* * *

مع أن الكلاب تقتل حوالي الألف نسمة في كل عام، ومع أنها تكلف الدولة والبلديات مبالغ هائلة لتنظيف الشوارع والأرصفة من أقذارها، فإن ظاهرة اقتناء الكلاب منتشرة على نطاق واسع في فرنسا وتكاد تدخل في عادات وتقاليد أبنائها. في البيت والمدرسة، في المقهى والتلفزيون يتحدثون عن الكلاب والقطط... الكثير من أحاديث اللقاءات والزيارات محورها هذه الحيوانات الأليفة، يلتقي الفرنسيون في الشارع فتسارع الكلاب لتشمشم بعضها البعض، فتتحاب وتتآلف حيناً وتتعارك وتتعاض أحياناً أخرى، مما يجر أصحابها للحديث عنها، كل يعرض مشكلته مع كلبه، يخبر عن طبائعه وتصرفاته ويتحدث عن نوادره ومميزاته، وكثيراً ما تلمح عند البعض علامات الغضب والخجل إذا كان كلبه نابحاً وعدوانياً وقليل التربية، فتراه يبادر إلى الإعتذار والاستفاضة في شرح وتبرير الظروف الذي دفعته إلى هذا التصرف، بينما يفخر البعض الآخر لكون كلبه مطيعاً ومدرباً، حركاته لطيفة وملفتة، فيبادر للبرهان على ذلك بأن يأمر كلبه بالقيام بأفعال وحركات تدل على ذكائه ومن وراء ذلك على مقدرة صاحبه ومواهبه في ترويضه وتعليمه... وفي أكثر الأحيان تجر

الكلاب أصحابها إلى التعارف، فتصبح مواعيد نزهاتها فرصاً للقاءات دورية ومنتظمة... هناك أنواع كثيرة من الكلاب، هناك الكلاب الذئاب التي تربى في البيوت المستقلة وفي المنازل المنعزلة أو في الأرياف، وهي كلاب مدربة ومخيفة، والغاية من تربيتها الدفاع عن المنزل وأصحابه وحراسة الأرواح والممتلكات... وهناك الكلاب الصغيرة بأشكالها المختلفة، التي تربى داخل البيوت، تقفز في صالونات الضيافة من مقعد لآخر، تدخل إلى المطابخ وغرف النوم وترافق أصحابها في كل حركاتهم وسكناتهم، تاركة أوبارها فوق الأثاث وعلى مقاعد السيارات... الاهتمام بالكلاب مسألة ملفتة يكرس لها الفرنسيون الأوقات والإمكانيات... في ساعة متأخرة من الليل أو في الساعات المبكرة من الصباح يخرج الفرنسي مصطحباً كلبه متحدياً الثلج والمطر والصقيع، ملبياً رغبته في الخروج إلى الطبيعة لقضاء حاجته في الهواء الطلق أو لممارسة حقه في نزهته المعتادة...

في الأسواق وفي المراكز التجارية الكبرى تخصص أجنحة للوازم الكلاب من أدوات التنظيف والعناية إلى السلاسل والملابس وصولاً إلى الأغذية والأطعمة والأدوية... وللكلاب أيضاً أطباء ومراكز للعناية الصحية تعاينها إما دورياً أو عندما تدعو الحاجة حسب الحالة المادية لأصحابها وحسب درجات اهتمامهم بها... كما أن للكلاب مزينين وماشطين يغسلونها ويقصون شعورها ويتفننون في تجميلها وإبراز مميزاتها وتنظم لها مباراة لانتخاب أجمل كلب لهذا العام أو لاختيار أفضل لاعب أو أقوى عداء، كما كان شباب الحي الذي كنت أسكنه يعمدون إلى حبس كلابهم في أقبية ضيقة، مقفلة ومظلمة لكي تزداد شراسة وعدوانية تمهيداً لزجها في معارك حرة بغية اختيار الكلب الذي سيمنح لقب البطولة!!. وسبحان الحي الذي لا يفنى ولا يموت، فالكلاب يدركها الموت والفناء ومن أجل ذلك استحدثت لها المقابر وأقيمت لها النصب، ووضعت على أضرحتها الصور وأكاليل الزهور... كما أنشئت الجمعيات التي تتولى الدفاع عن حقوقها والعمل على تحسين ظروف معيشتها... كنت أعجب من أحد سكان البناية التي كنت أسكنها عندما كنت ألتقي به في مدخل العمارة محتضناً كلبه الصغير يداعبه ويملس شعره، كيف كان يقطب جبينه ويصفق البوابة خلفه غير آبه بمن أمامه ومن خلفه، كنت أفكر في حبه ورقته تجاه كلبه وفي شراسته وغلاظته مع جيرانه وأهل بيته حيث شاهدته مرة يصفع زوجته داخل سيارته على مرأى من الناس... أهو انتقام للوفاء الذي لم يجده إلا عند كلبه؟ أم حاجته إلى سلطة يفتقدها فلا يجد من يمارس سلطة عليه إلا هذا الحيوان البريء؟ أغلب الظن أن كثيراً من

الفرنسيين بدأوا يفتقدون توازنهم نتيجة طغيان الأنانية الفردية والقيم المادية، قيم الربح والوصولية، حتى أصبح العديد منهم لا يتحدثون إلا بلغة المال ولا ينظرون إلا بعين التاجر والسمسار. سعي محموم خلف الثروة وتعطش للكسب حتى ضاقت فسحة التأمل واتسعت مساحة التطلع إلى آفاق أعلى من الكسب والغرق في الملذات المادية... هناك نوع من الفراغ والخواء الروحي، من أهم أسبابه تفكك الروابط العائلية وتراجع القيم الخلقية والاجتماعية، فنصف الفرنسيين لا يتزوجون وأكثر المتزوجين لديهم ولد واحد أو اثنان والقليل منهم عنده ثلاثة أولاد... الولد مسؤولية كما قالت جارتنا (جانيت) التي كانت تعيش مع كلبها الضخم ذي الشعر الطويل في غرفة واحدة، والتي كانت بعد الطلاق من زوجها قد دفعت بابنها الصغير إلى والدتها لكي تقوم على تربيته، كانت ترد على زوجتي التي سألتها: لماذا تربين الكلب ولا تربين ولدك الصغير؟ فتقول: الولد مسؤولية، الولد قيد... أنا أستطيع أن أربط الكلب وأغلق الباب عليه وأذهب لعملي أو لقضاء حاجاتي ولكني لا أستطيع أن أفعل ذلك مع ولدي... هذا الفراغ الذي يعيشه عدد لا بأس به من الفرنسيين يجعلهم بحاجة إلى كلب ينبح أو قطّة تموء، بحاجة إلى أصوات تكسر حاجز الصمت المرعب وإلى حركات تبعث الحياة في جو السكون والجمود... الفرنسي الذي ينوء تحت ثقل الأوضاع المادية التي تزداد تعقيداً والذي يلهث لتأمين الحاجات الاستهلاكية المتزايدة بحاجة إلى حيوان يتمرغ عند قدميه ويظهر له المحبة التي خسرها والوفاء الذي افتقده... الطفل بحاجة إلى كلب صغير يعوض عن غياب الأخ والأخت والمرأة بحاجة إلى حيوان صغير تعطيه شيئاً من حنان أمومتها المجهضة والرجل بحاجة إلى مخلوق ينهي عزلته يتخاطب معه ويحاوره... لذلك تجد كثيراً من العجز إما يتكلمون مع كلابهم وقططهم طوال أوقاتهم وإما يتكلمون مع أنفسهم فتشاهدهم في الشوارع يقيمون حوارات وهمية، هادئة حيناً وغاضبة أحياناً ترافقها حركات بالأيدي وتعابير تظهر على صفحات الوجوه...

* * *

كنت قد تعلمت من أدبيات الماركسية، بأن البناء الاقتصادي التحتي، هو الذي يحدد البناء الفوقي الثقافي والفكري، وأن لكل طور من علاقات الإنتاج الإقتصادية قيمه وأفكاره ومعتقداته، المنسجمة والملائمة... فالدين والاعتقاد بالخرافات والأساطير هي نتاج علاقات الإنتاج الإقطاعية التي لا تلبث أن تختفي وتضمحل

وتتلاشى بعد حلول علاقات الإنتاج الرأسمالية، التي يأخذ العقل فيها دوره مكنساً أمامه كل الأوهام والتخيلات والأفكار المثالية... كدت أصدق ذلك للوهلة الأولى حين بدت لي الكنائس مراكز أثرية يقصدها السواح أكثر مما يقصدها المؤمنون وحيث رأيت بأن الأغلبية الساحقة من المتدينين الذين يؤمّون الكنائس جلهم من الأفارقة الذين يتجمعون أمام أبوابها بكامل أناقتهم، يرتدون البدلات الكحلية والقمصان البيضاء تدليلاً على رقيهم وبلوغهم المستوى الاجتماعي اللائق... ولكني عندما طالعتني الإحصائيات بأن نسبة الفرنسيين المؤمنين بالله وبالأديان تتجاوز الستين بالمائة، وبأن عدد الذين يستشيرون البصارين والمشعوذين والعرافين... يفوق العشرة ملايين شخص بالعام، وحين علمت بتزايد الجماعات السرية التي تسير خلف نبي مزعوم، يبشر أفرادها بقرب الخلاص وبترقبات خطيرة سوف تحصل، عليهم التهيؤ لها والتحضير لمواجهتها والتضحية بكل شيء من أجل تفاديها!. عندما لامست عن قرب أفكار الناس ومفاهيمهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم، وجدت أن الحياة تستعصي على المفاهيم المطلقة، ولا تفسر بالنظرة الجامدة والأحادية، وأعدت النظر في تلك المقولات خصوصاً عندما عايشت مجتمعاً رأسمالياً متطوراً يتألق في ميدان التقدم المادي والتقني وتزداد فيه مساحة المعرفة والعلوم ولكنه أبعد من أن يصل إلى مرحلة يستغني فيها عن الإيمان بالغيب وعن ابتكار وابتداع وتخيل ما يساعد الإنسان على تفسير المجهول الممتد أمامه بلا حدود وبلا نهاية وما يمكنه من مواجهة طغيان المادة واختلال التوازن... شاهدت العديد من المقابلات والتحقيقات وسمعت من الزملاء والأصدقاء الكثير من الأخبار التي تتحدث عن المعجزات الحاصلة أو المتوهمة، عن القدرات الخارقة، عن الصحون الطائرة، عن البيوت المسكونة، عن العالم الآخر ومخاطبة الأموات، عن طرد الأرواح الشريرة... إلى آخر ما هناك من أمور أصبحت موضع دراسة ومحط بحث واهتمام، أمور يتفاوت الإيمان بها وتختلف طرق تفسيرها بين فرنسي وآخر كما نجده لدى الشعوب والأمم الأخرى...

لا يتسع المجال للحديث عن العديد من الظواهر والمشاهدات الحية التي تجمعت لدي خلال إقامتي في فرنسا والتي اجتزأت منها ما ورد في خاطري حيث وجدت طريقها إلى الورق بكل عفوية دون صناعة أو قصد منهجي منظم... أخيراً أخلص إلى القول بأن ما اعتبره مميزات وخصائص عند الفرنسيين لا يتأتى من كونهم فرنسيين ينتمون إلى جنس محدد بقدر ما هو نتاج ظروف وأوضاع

ومعتقدات وأفكار سادت وتأصلت حتى جعلتهم يرتفعون في مجال ويهبطون في مجال آخر، يبلغون الذروة في ميادين التنظيم والتخطيط والعلم والتقنية، وينحدرون في ميادين القيم الخلقية والعلاقات الاجتماعية والعائلية حتى ضاعت الحدود بين الحرام والحلال، بين حق الإنسان الفرد وحق الجماعة، بين الحرية الغرائزية والحرية الإنسانية...